

تتمحور مجموعة الشوارع الاصفر حول ثلاثة محاور:

١ - القمع الاسرائيلي ونقاط تمفصل المقاومة الشعبية .

٢ - الارض وعلاقة الانسان بها .

٣ - البعد الانساني للفعل التاريخي .

هذه المحاور الثلاثة تندمج داخل العمل الفني . وتأخذ لنفسها اطارا واحدا هو الارض الفلسطينية وضرورة البقاء فيها .

١ - القمع الاسرائيلي ونقاط تمفصل المقاومة الشعبية :

لعمل قصة « الشارع الاصفر » وهي اولى قصص المجموعة تشكل وثيقة اتهام كاملة لاشكال القمع الوحشي الذي يمارس ضد عرب الارض المحتلة . وتوفيق فياض يضع نفسه في حيفا « في القيتو العربي في حيفا » حيث يصل القمع الى درجة جنونية . فالشرطة التي تمتثل امين سمعد في تظاهرة « نطلبها شلة من الزهران العرب » تمارس معه أبشع انواع التنكيل والبطش والارهاب . الانسان يتحول الى خرقه تتكوم في بئر عميقة لا يصلها شيء بالحياة . والسيطرة تقهقه في حياته الشخصية عبر الضغط المادي على خطيبته وداد كي تتركه . ان ثقل الموضوع كله ينصب على ناحيتين : من جهة اولى هناك الوجهاء العرب في حيفا الذين باعوه وباعوا أنفسهم للمحتل . ومن جهة اخرى هناك ضراوة القمع الذي يتعرض له المناضل في الارض المحتلة . وفياض حين يحاول تصوير الجانب الاول من الموضوع فان بطله امين سمعد يكتفي بالتقيؤ على المارة من شرفة منزله ، او هو يقوم باشعال النار حيث يرقص وجهاء العرب ليلة رأس السنة . اما حين تتعرض ريشته للجانب الثاني من الموضوع ، فان عنف القمع يصل به الى وصفه بشكل سوريالي « قبل لحظات معدودة فقط ، كان يعلق من كعبه في حانوت قصاب وسط سوق عكا . . . وقد شرع القصاب في تقطيع اوصاله وهو لا يزال حيا ، دون ان يستطيع الكلام ، كان ينظر اليه وهو يقطع يديه على الجذع ، ويضع قطعها على الطاولة ! ثم ما لبث ان قطع رأسه ووضعه الى جانب يديه . . . » القمع يصل حافة الجنون وتصويره بشكل كلاسيكي قد يوقع الفنان في تبسيط الموضوع او في التقليل من اثره . من هنا يقفز

الكاتب الى الوصف غير الواقعي ، ليصور واقعا معاشا . فسوريالية هذا المقطع ، - الفرق في كابوس مرعب - هو واقع يومي يعيشه الانسان العربي المسحوق تحت احذية الغزاة . لكن القصة لا تتوقف عند حدود وصف الواقع ، انها تبحث لنفسها عن المخرج . وهناك بالفعل مخرج سهل الهجرة « انك تعيش هنا في قبر ! شمبك كله هنا يعيش في قبر ، مظلّم ، هائم ! وطنك هذا الذي لك ، وليس لك ، لماذا لا تهجره ؟ لماذا ! » جواب امين سمعد على هذا التساؤل يأخذه من اطفال شعبه من افانيم : « لانني اذا هجرتك يوما تهجرني روحي واذا نسيتك ينساني الفرح » .

اما اليأس من النضال ، والانزواء خارج حلبة القتال ضد المحتل ، فان اصوات المتظاهرين وهتافاتهم تصير حركة فعل تاريخي تخرج الانسان من يأسه الفردي ، وتحيله الى لحن في اغنية نضال جماهية .

اذا كان القمع الاسرائيلي يظهر في قصة « الشارع الاصفر » واضحا فانه في بقية قصص المجموعة ، يصبح رمزا يفتك بالارض نفسها . ففي قصة « الراعي حيدان » يتحول المحتل الى ذئب جائع ، تلتهم الارض والاغنام التي ترعى عليها ، وهو في قصة « أم الخير » يصبح حية سامة تقوم بعملية قتل جماعية لعائلة بكاملها وتحيل اهالي القرية الى جوع من النازحين هربا من الداء الذي ينبت قروحا في جسد ام الخير ، وهو في قصة « ليلة القدر » يتحول الى مرض يفتك بعميون الصبية الجميلة الميتين . وهو في قصة « الكلب سمور » جندي انكليزي او صهيوني يفتك بأهالي القرية . القمع هو الكابوس الذي تعيش مجموعة « الشارع الاصفر » في ظلاله . وهذا القمع يتمفصل حول جسد الارض . حول القرية الفلسطينية . انه السرطان الذي يدخل جسد القرية ولا يستطيع احد مقاومته . وحين يأخذ القمع شكلا مدينيا « حيفا » فانه يصبح في قسوته قهقا لا معقولا . يفصل الرأس عن الجسد ، يبيع الاعضاء الاخرى في حانوت قصاب .

غير ان الرد على هذا القمع يأخذ نغمتي ارتكاز :

أ - تعلق الانسان بأرضه . هذا التعلق الذي يصل الى حدود بقاء الانسان وحيدا امام قروح ام الخير التي يتحول جسدها الى شجرة تشنني قروح الناس الذين بقوا معها الى النهاية .